الباب الأول

تحليل مضمون السورة

الفصل الأول : الموضوعات

الفصل الثانى : الأفكار

الفصل الأول

الموضوعات

تتضمن سورة طه عدة موضوعات وأفكار يحتاج كل منها إلى التوقف الطويل والتأمل العميق ، ويلزمنا المقام بعرضها دون إسهاب ، وشأن سورة طه هو شأن السور الأخرى الزاخرة بالأفكار والموضوعات ، وكل موضوع يضم تحته أفكارا ، وكل فكرة تؤدى أو تولد فكرة جديدة ، فالقرآن الكريم كنز لا ينفد من الأفكار العميقة العظيمة .

الموضوع الأول :

ونرى من خلال مالدينا من تفاسير أن الموضوع الأساسى فى سورة طه والذى تدور حوله الموضوعات الأخرى والأفكار هو : **التخفيف عن رسوله الكريم ﷺ** ، فلقد اشتد أذى قريش عليه وعلى المسلمين وهم صابرون متمسكون بدينهم ، لايثنيهم عن عقيدتهم تعذيب أو استشهاد أخوة لهم فى الإسلام ، ولا يردهم عن تلك العقيدة وعيد الطغاة ، وتحكمهم فى أرزاقهم وسلوكهم .

وقد ساءت حالة المسلمين ، فالأغنياء منهم قد تبددت ثرواتهم لركود تجارتهم ، وتآمر قريش وحلفائها عليهم ، ولتكالفهم مع إخوانهم من المسلمين الفقراء ، أما الضعفاء من المسلمين كالعبيد والموالى والفقراء فقد ساءت أحوالهم بسبب تتبع السادة من قريش لهم وتعذيبهم وإذلالهم وقتل بعضهم ، مما دعا الرسول ﷺ إلى السماح لجماعة منهم بالهجرة إلى الحبشة .

أما آلام رسول الله ﷺ فكانت ثقيلة لا يقوى على حملها الأفذاذ ذوو القوة والجلد ، فلم يكن أذى قومه وحده هو مصدر آلامه ، بل إن أمر المسلمين وما يلاقونه كان ينبوعا ثرا لتلك الآلام ، أما الرسالة وما تلاقيه من عثرات فى السنوات الأولى من الدعوة ، فالله يدبر شأنها ، وما على الرسول الكريم إلا أن يصبر ويتحمل الآلام المنضنية .

وقد نزلت سورة طه وموضوعها الأشمل الأعم هو التخفيف والتسرية عن رسول الله ﷺ ، وقد جاءت الموضوعات الأخرى مؤازرة لهذا الموضوع ، ومؤكدة عليه .

الموضوع الثانى :

وقصة موسى عليه السلام هى الموضوع الثانى فى السورة وهى موضوع يأتى فى ترتيبه المحدد بدقة ، فهو يأتى فى تسلسل منطقى بعد الآيات الثمانى الأولى التى يطلب الله تعالى من رسوله ﷺ الترفق بنفسه والتخفيف عنه ، فالله جل ثناؤه لم ينزّل القرآن على رسوله ليتعذب أو ليشقى به وبالصلاة طول الليل واقفا على قدم واحدة يبدلها بالأخرى حتى تورمتا . ويورد القرطبى عن الكلبى أن الرسول ﷺ قد اجتهد فى العبدة بمكة لما نزل الوحى عليه ، فجعل يصلى الليل كله زمنا حتى نزل قوله تعالى ﴿طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فأمره الله أن يخفف عن نفسه فيصلى وينام، فنسخت هذه الآية قيام الليل[1].

وهذه الآية تتضمن الرحمة بنبيه الكريم ، وبالمسلمين المهتدين بسنته .

وإذا أضفنا إلى ذلك مالاقاه من جهالات الكفار ، وسوء حال المسلمين ، ومحاربة الكفار للرسالة – إن قصة موسى فى هذه السورة تأتى فى هذا الموضع مناسبة للمقام ، ومؤازرة ومؤكدة وموضحة للموضوع الأول .

وموسى عليه السلام قد لاقى من الآلام فى سبيل الرسالة القدر الكبير ، فمنذ أن كلفه الله بالرسالة بعد عودته من أرض مدين وبعد انقضاء الأجل المتفق عليه مع الرجل الصالح وهو يجاهد ويصبر على طغيان فرعون وكبريائه ومكابرته ، وفرعون له من القوة والتجبر مايرهب به موسى وقومه وأهل مصر ، ويصبر موسى على أذى فرعون ووعيده ، ويقف مواقف الاختبار مع فرعون والسحرة والسامرى ، وهو صابر متيقن من تأييد الله له ، وقد جاءت آيات ربه عندما تأزمت المواقف ، واشتد الخلاف ، وعظم التحدى ، فلم يدع الله رسوله نهبًا لأعدائه ، بل نصره وأيده عندما كان التأييد مطلبا ضروريًا .

ورسول الله ﷺ يجد فى آلام موسى وصبره ونصرة الله له تخفيفا وتسرية عنه ، وعن المسلمين الصابرين ويزداد المسلمون تمسكا بدينهم موقنين بالنصر والغلبة على المشركين .

الموضوع الثالث :

وإذا كانت قصة موسى عليه السلام تقع موقع التأكيد والتوضيح للموضوع الأول فإن قصة **سيدنا آدم عليه السلام تمثل الموضوع الثالث فى السورة** ، وهو فى ترتيبه ومغزاه لا ينفصم عن الموضوعين السابقين بل نراه وثيق الصلة بهما . وهو يؤدى وظيفة

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٦ ص ٤٢٠٧ .

دلالية مماثلة للوظيفة التى أداها الموضوع الثانى . ونعنى بذلك أنها تأكيد من الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم على أنه لا يتخلى عن أنبيائه وأنه سبحانه يمدهم بعونه ، وينصرهم على الكفار ، وأن رحمته واسعة ، وعفوه كبير ، لا يأخذ المذنبين بذنوبهم ، ويتوب عليهم ، وآدم عليه السلام في سورة طه تعرض قصته بإيجاز ، وتؤكد على رحمة الله التى شملته بعد أن نسى أوامر الله سبحانه بالامتناع عن أكل ثمار الشجرة التى نهاه هو وزوجه عن الأكل منها ، واتبع غواية الشيطان ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾[1] وقد حذره الله من اتباع وسوسة إبليس له لأنه عدو له ، كما أخبره بعاقبة الاتباع وهى خروجهما من الجنة : ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾[2] .

ومع خطأ آدم ونسيانه أوامر الله واتباعه غواية الشيطان إلا أن الله قد اصطفاه للنبوة وقربه ، وتاب عليه وهداه ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[3] .

فالله تعالى واسع الرحمة . كريم بأنبيائه غفور لزلات المخطئين منهم ، وكرمه ورحمته أوسع وأشمل للمعصومين من الخطأ مثل رسوله الكريم سيدنا محمد ﷺ . فالرسول لم يعص أمرًا لله ، ولم يتبع غواية الشيطان كما فعل آدم ، ولم يقتل نفسًا خطأً أو عن عمد قبل الرسالة أو بعدها كما فعل موسى عندما قتل المصرى ، فهو ﷺ أولى برحمة الله وتأييده ونصره على أعدائه .

---

(١) سورة طه آية ١٢١ .
(٢) سورة طه آية ١١٧ .
(٣) سورة طه آية ١٢٢ .

الفصل الثانى

الأفكـــــار

هذه هى الموضوعات الثلاثة التى تدور حولها السورة كما رأينا ، وهى تتآلف مع بعضها فى وحدة عضوية تنمو وتتآزر ويكمل بعضها الآخر فى تسلسل مقبول ومعقول .

والسورة حافلة بالأفكار العظيمة العميقة ، ويحتاج درسها والنظر فيها واستنباط معانيها وغاياتها – إلى زمن طويل ، وميدان أرحب . وسنكتفى بإبراز ما يبدو لنا أنه ذو صلة وثيقة بدراستنا ، ونرى أنها ستتناول قدرًا كبيرًا منها إن شاء الله تعالى .

الفكرة الأولى :

هذه التى تتضمنها السورة هى طبيعة الرسل ووظيفتهم ، فهم بشر يشتركون مع الجنس البشرى كله فى خصائص عامة ، فهم يفرحون ويحزنون ويأكلون ويشربون ويتناسلون ، ولهم عقلهم وشعورهم ، لكن الله سبحانه قد اختارهم واصطفاهم وكرمهم بهذا الاختيار وفضلهم على غيرهم ، فصرفهم عن الأمور اليومية المادية التى تشغل الناس ، وسما بهم إلى آفاق علوية ، فهم يفكرون فى الكون وخالقه ، ويؤهلهم الله بهذا التفكر والتأمل لتلقى الرسالات التى يكلفهم خالقهم بتبليغها لأقوامهم أوللعصاة والكفار والطغاة .

والرسل – لأنهم بشر – يتألمون ويفرحون على حسب ما تلقى دعوتهم من قبول أو رفض ، وهم ينسون أن وظيفتهم التبليغ والتبشير والإنذار فقط ، وأن تغيير الناس من حال إلى حال أمر يتعلق بإرادة الله وحده ، وهو يعلم الخير ومواضعه وأزمانه ، ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾[1] . ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا ، ولاتُسْأَلُ عن أصحاب الجحيم ﴾[2] . ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾[3] . ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم

(١) سورة المائدة آية ٤٨ .

(٢) سورة البقرة آية ١١٩ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٢ .

يحزنون﴾[١] . ﴿يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرًا ونذيرًا . وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا . وَبَشِّرِ المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيرًا﴾[٢] .

فالرسول ﷺ يتألم من جهالات الكفار ، والله جل ثناؤه يذكره بأن القرآن قد أنزل عليه ليذكر الناس ويهديهم فقط ﴿طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ .[٣]

ويرى المفسرون أن الشقاء فى اللغة هو التعب كما قال الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

والرسول يشقى بمعنى يتعب لفرط تأسفه على كفر قومه ، ويتحسر على عدم إيمانهم[٤] . وقد تأكد هذا المعنى فى سورة الشعراء : ﴿ لعلك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين﴾[٥] .

وحال موسى عليه السلام والتصاقه القوى بطبيعته البشرية هو حال رسول الله ﷺ وطبيعته ، فكان عليه السلام يغضب ويأسف لحال قومه الذين تركوا عقيدتهم عندما فتنهم السامرى وهو غائب عنهم ، وقد غضب على قومه وحزن كما وجه اللوم إلى أخيه هارون ، لاعتقاده أنه أهمل الدعوة وترك بنى إسرائيل نهبًا للبدع والفتن . يقول سبحانه : ﴿وما أعجلك عن قومك ياموسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك ربّ لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسِفًا﴾[٦] .

وتوضح الآيات التالية غضب موسى ولومه وتهديده لأخيه هارون ، فقد ظن أن هارون قد أهمل الدعوة ، وأن له دورًا فى فتنة السامرى لبنى إسرائيل ، وهو غضب بشرى وظنون هى من طبيعة البشر . قال تعالى : ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمرى . قال يبْنَؤُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى﴾[٧] .

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٨ .
(٢) سورة الأحزاب الآيات من ٤٥ – ٤٦ .
(٣) سورة طه الآيات من ١ – ٣ .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٨ .
(٥) سورة الشعراء آية ٣ .
(٦) سورة طه آية ٨٣ – ٨٦ .
(٧) سورة طه آية ٩٢ – ٩٤ .

وكما أكدت السورة بشرية محمد ﷺ وموسى عليه السلام فإنها تؤكد أيضًا بشرية آدم الذى اصطفاه ربه ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[١] . فقد فضله سبحانه على بقية خلقه ، وجعله خليفة له فى أرضه ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له .

وكل هذا التكريم لم يخلصه من طبيعة البشر ومنها النسيان فقد نسى آدم عليه السلام نهى ربه عن الأقتراب والأكل من تلك الشجرة . ولقد ظهر الضعف الإنسانى فى آدم وزوجته أيضًا عندما ضعفا أمام إغراء إبليس ، كذلك قد تجلت خصائص البشرية فيهما عندما أحسا بالخجل بعد ما بدت لهما سوءاتهما ، فجعلا يسترانها بأوراق شجر الجنة ، أو بأوراق شجر التين الكبيرة .

يقول جل ثناؤه فى سورة طه : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إنّ هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألاَّ تجوع فيها ولا تَعْرَى . وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحَى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى﴾[٢] .

فالأنبياء والرسل بشر اصطفاهم الله من الناس وطهرهم وعلمهم وصفى قلوبهم وخلصهم من مطامع الدنيا ، ومحمد وموسى وآدم عليهم السلام يمثلون ذلك أكبر تمثيل ، ومع اصطفاء الله لهم فهم يحتفظون بالسمات البشرية من غضب وفرح وخجل وندم وأكل وتناسل ، كما يُلقى بهم النسيان فى الخطأ ، لكنهم جميعا لا يقترفون الخطيئة ، وفرق كبير بينهما، فالخطيئة هى الإقدام على الإثم بقصد ومعرفة، والخطأ بلاقصد أومعرفة .

والرسل جميعًا يشتركون فى دعوة الناس فى كل زمان ومكان إلى مسائل العقيدة .

الفكرة الثانية :

هى أن الرسالات السماوية تشترك كلها فى الدعوة إلى التوحيد ، فلم يُدْع دين أو رسول إلى شىء غير وحدانية الخالق الذى لاشريك له ، وهو منزه عن الزوجة والولد ،

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٣ .

(٢) سورة طه آية ١١٥ – ١٢١ .

وهو سبحانه فوق صفات البشر ، فلا العقول تدركه ولا الأبصار تحيط به لأنه جل ثناؤه المطلق فى شىء ، خلق الكون وعلم ما حادث وما سيحدث به فى المستقبل .

لقد خلق الله الخلق وفضل الإنسان بالعقل على كل المخلوقات ، وترك له الاختيار ، وسيحاسب الإنسان على فعله الذى يعبر عن مدى استخدامه العقل الذى أودعه فيه . والعدل الإلهى يستوجب أن يحاسب كل إنسان على ما صنع ، وأن يكون لصنع البشر نهاية ، فيقام العدل وينصب الميزان ، ويميز بين المحسن والمسىء ، لكن رحمة الله واسعة وغفرانه لا ينقطع .

والسورة الكريمة تؤكد اتحاد دعوة الأنبياء وغاياتها ، فالقرآن الكريم الذى نزل على محمد ﷺ يذكر ذوى القلوب الخاشعة بأن الله واحد لا شريك له ، خلق الأرض والسماوات وما بينهما ، وهو سبحانه يملك زمام الكون ويعلم ما فى السر والعلن ، فالقرآن نزل تذكرة لمن يخشى ، والذى أنزله على نبيه هو الخالق : ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسمُوات العُلى . الرحمٰن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾[1] .

وقد سبقت رسالة موسى الرسالة المحمدية فى مضمونها وهدفها ، لكن الدعوة المحمدية تتميز بالشمول ، لأنها للناس كافة وليست لفرعون وقرمة أو لبنى إسرائيل ، وعندما ناداه ربه فى الوادى المقدس وكلفه بالرسالة أمره أن يدعو إلى الله وحده ، والتذكير بيوم سيحاسب فيه كل إنسان على ما قدم ، وهو يوم آت لا ريب فيه .

قال تعالى : ﴿فلما أتاها نودى يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾[2] .

والسورة الكريمة تؤكد أن آدم خليفة الله على الأرض ، غرس فى أبنائه العقيدة الصحيحة بوحدانية الله خالق الكون ورازق المخلوقات ، وأكد لهم أن الله سيجازى كل نفس بما صنعت ، وأن يوم الحساب آت لا ريب فيه وهو يعلم سبحانه أن ذرية آدم

---

(١) سورة طه آية ٣ - ٨ .

(٢) سورة طه آية ١١ - ١٦ .

سيدب بينها الخلاف والعداء والحسد ، ولذا جاءت شريعة الله التى كلف بها آدم منهجًا لأبنائه من بعده ، وقد تحقق علم الله فى ذرية آدم بعد ذلك بقرون .

قال تعالى : ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإنَّ له معيشة ضنكًا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾[1] .

فالسورة تؤكد غاية الرسالات السماوية ، وهى تصحيح المعتقدات وهداية الناس إلى وحدانية الله ، والتعريف بقدرته ورحمته وعدله ، لكن الرسالات تتباين فى شمول الدعوة أو ضيقها ، والسورة تؤكد ضمنًا أن رسالة محمد ﷺ أعم وأشمل ، لأنها موجهة إلى الناس كافة ولذلك جاءت متأخرة لتكون آخر رسالة من السماء . أما رسالة موسى فهى فى مكانة وسطى من حيث العمومية والشمول ، فلقد وجهت إلى فرعون وهامان ومن يتبعهما ، ثم وجهت إلى بنى إسرائيل ومن يحيطون بهم ، لكنها نسخت برسالة عيسى عليه السلام .

أما رسالة آدم فهى محدودة إذا ما قيست برسالة موسى ومحمد عليهما السلام ، فهى لبنيه وأحفاده ولم يكن على الأرض غيرهم ، وظلت قائمة بعده فترة من الزمان .

وكأن السورة وهى تعرض هذه الفكرة قد استوفت الرسالات السماوية كلها بإيرادها للأنبياء الثلاثة الأول والوسط والخاتم ، أو الرسالة المحدودة والرسالة الوسطى والرسالة الشاملة .

وإذا كانت الرسالات الثلاث قد اجتمعت للتأكيد على وحدانية الله وقدرته وعدله فإنها تؤدى إلى الفكرة الثالثة بسلاسة وإحكام ونعنى بها مظاهر القدرة .

الفكرة الثالثة :

مظاهر القدرة الإلهية . فالله الواحد من صفاته القدرة ، فهو قادر على كل شىء ، وكل الكون ما نعلمه وما لا نعلمه منه يتعلق أو مرهون بإرادته ، والرسالات الثلاث تؤكد على هذه القدرة ، وتصورها بالقدر الذى تدركه حواس البشر ، والمجال الذى تسبح فيه مخيلتهم ، وتصل إلى مداه عقولهم . وهذه أمور محصورة فى السماوات

---

(١) سورة طه آية ١٢٢ – ١٢٧ .

وما فيها ، وفى الأرض وما عليها ، وما فى باطنها ، فالقرآن الكريم الذى نزل على الرسول محمد ﷺ يتضمن فى الحكاية عن نفسه أنه تنزيل من خالق السماوات والأرض ﴿تنزيلا ممن خلق الأرض والسمٰوات العلى﴾ (١) . وفى مقام الحديث عن استواء الله على العرش وملك الله الثابت المتمكن تصور السورة مظهرًا من مظاهر ذلك الملك ﴿له ما فى السمٰوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾(٢) .

وكما صورت السورة قدرة الله فيما خلق فإنها تصور أيضًا قدرته على فعل أى شىء غير متصور ، فالجبال الضخمة الراسية الممتدة ما مصيرها يوم لقيامة مثلا ، وهو اليوم الذى تزلزل فيه الأرض وتفنى ، وتجيب السورة على مثل هذه الأسئلة المحيرة ، وهى تؤكد قدرة الله ونصورها، وتبين مقدارها فى أثر من آثار خلقه، يقول سبحانه : ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفًا . فيذرها قاعًا صفصفًا . لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا﴾(٣) .

ولا تتوقف مظاهر القدرة الإلهية عند خلق الكون على غير مثال سابق ، والتحكم فيه ، وتصريفه على حسب مشيئته سبحانه – وإنما تأخذ قدرته تعالى مظهرًا آخر هو إحاطته سبحانه بكل ما يجرى فى الكون الذى خلقه ، فهو يسمع ويرى ما يظن الناس إنه سر خفى لا يعلمه أحد ، بل يعلم سبحانه ما يضمره المرء فى نفسه .

ويقول ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير الآية السابقة من السورة وهى قوله تعالى : ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ السر : ما حدث به الإنسان غيره فى خفاء ، وأخفى من السر ما أضمر فى نفسه ما لم يحدث به غيره .

وعنه أيضًا : السر . حديث نفسك وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن(٤) .

والسورة قد عرضت التصور القرآنى لمظاهر القدرة الإلهية بإيجاز معجز ، فهو تصورٌ معرفىٌّ فى سطور ، لكنه يحتاج عند أرباب البيان إلى صفحات مطولة .

أما مظاهر تلك القدرة فى قصة موسى عليه السلام فإنها تتمثل فى خلق الكون أيضًا والتصرف فيه على حسب مشيئته ، وتأتى تلك المظاهر فى معرض المجادلة بين فرعون

---

(١) سورة طه آية ٤ .
(٢) سورة طه آية ٦ .
(٣) سورة طه آية ١٠٥ – ١٠٧ .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢١٠ .

وموسى عندما دعاه إلى الإيمان بالله ، وكانت تساؤلات فرعون عن رب موسى وقدرته ، فيجيب موسى بأن مظاهر القدرة ماثلة فى فرعون نفسه المخلوق الذى يعيش فى نعم الله الذى سيحاسب المخلوقين عليها وعلى أعمالهم . لقد سأل فرعون موسى عن ربه ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾[١] وهو سؤال عن الرب لكن موسى قد أجابه عن قدرة الرب ، لأن السؤال عن ذاته سبحانه أمر يصعب إدراكه ، وإنما يجب أن يكون سؤال فرعون عن مظاهر قدرة الله ، وهى أمور معقوله وملموسة ، ومعنى هذا إن إجابة موسى على سؤال فرعون يدخل فى الأسلوب الحكيم المعروف عند رجال البلاغة . كما أن سؤال فرعون فيه عدول عن خطاب الاثنين إلى الواحد ، لأنه يعرف موسى ويتحداه ويريد إفحامه .

لقد أجاب موسى على سؤال فرعون ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقَهُ ثم هدى﴾[٢].

وقد جاء سؤال فرعون الثانى لموسى قريبًا من نمط السؤال الأول عندما سأله عن أخبار الأمم البائدة والسابقة ، وقد أراد بسؤاله هذا أن يفحم موسى ، ويظهر عجزه عن مواصلة المجادلة عندما سأله : ﴿فما بال القرون الأولى﴾[٣] وهو سؤال تصعب الإجابة عليه بكلمات ، أو فى مقام الحوار العلنى السريع ، لأنه لا يتضمن أمة واحدة ، ولا حاكمًا معينًا ولا زمنًا محددًا .

وجاءت إجابة موسى تشتمل ضمنا معنى الإنكار على فرعون الذى سأله عن أشياء لا يعلمها البشر ، بل هى فى علم الرب الأعظم : ﴿قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾ [٤] وتسجل إجابة موسى على هذا السؤال مظاهر القدرة الإلهية ، وصفات الرب الخالق ، وهى صفات العلم والإحاطة التامة بكل ما وقع ، وما سيقع فى هذا الكون ، والله تعالى منزه عن النسيان وهى آفة بشرية ، وكل ما جرى فى الكون محفوظ ومسجل لا يضيع ولا ينسى ، وتمضى الآيات التالية متممة ومكملة لصفات قدرة الإله الذى ظهرت آلاؤه على المخلوقين ، ومنهم فرعون وقومه الذين يجحدون هذا الفضل ، وهم لا يشعرون ، وقد جاءت الآيات تؤكد أن الرب الأعظم هو ﴿الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من

---

(١) سورة طه آية ٤٩ .
(٢) سورة طه آية ٥٠ .
(٣) سورة طه آية ٥١ .
(٤) سورة طه آية ٥٢ .

نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النُّهَى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[1] .

فالآيات تصور القدرة الإلهية فى الخلق وتكفل الخالق بأرزاق المخلوقين ولا يدرك هذا إلا أصحاب العقول المفكرة . وقد كذب فرعون وهامان برسالة موسى على الرغم من الآيات والعلامات الدالة على صدق رسالته ووحدانية الله وقدرته .

وللمؤمنين فى قصة موسى وفى المعجزات التى أيده الله بها أدلة دامغة أخرى على قدرة الله ، وكانت مظاهرها العصا الملقاة واليد التى أبيض لونها والبحر الذى تشقق إلى طرق ، وهى مظاهر قدرة لا يعتريها الشك ؛ لأن القرآن قد ذكرها وأيدها ، وكل ما جاء فيه حقيقة حتى لو لم تقع عليه حواسنا . ومن الطبيعى ألا تقع عليها الحواس ؛ لأنها معجزات مرتبطة بزمان ومكان معينين ، وليست معجزة باقية على مر الزمان كمعجزة القرآن الكريم .

وإذا كانت قدرة الله سبحانه ومظاهرها تمثل هذه الفكرة فإن قدرة الله على الخلق والنشور تأتى مكملة لها وطبيعية فى ترتيبها .

الفكرة الرابعة :

هى التذكير بيوم القيامة وما سيحدث فيه . فالعدل الإلهى يستوجب حساب المخلوقين على أعمالهم التى فعلوها ، ومن أجل ذلك سينشر الخلق بعد زوال الحياة الدنيوية ، والله الذى أوجد الكون من العدم قادر على إعادته وعلى جمع الناس فى يوم الحشر .

وقد أنزل الله سبحانه على نبيه الكريم القرآن ، وقد وقف الكفار منه موقف المكذبين المعرضين ، والله تعالى ينذرهم بوعيده لهم يوم القيامة ، وسوف يجيئون فيه محملين بالأوزار التى ينوءون بها ، وفى ذلك اليوم الذى يشتد فيه الزحام يصاب هؤلاء المجرمون بالعمى والعطش الشديد ، ولا يعلمون كم مضى عليهم من الوقت . وهم فى قبورهم ؛ ولا يزيد تقديرهم لهذا الزمن على يوم أو أيام قليلة ، ومعنى هذا انعدام البعد الزمنى بالنسبة لهم لانعدام الإدراك بالأحداث ، وفناء الشعور بالوجود ، وقد جاءت الآيات تحذر وتذكر بيوم القيامة وما سيحدث فيه لهم . قال تعالى : ﴿وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين

---

(١) سورة طه آية ٥٣ – ٥٥ .

فيه وساء لهم يوم القيامة حملا . يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إنْ لبثتهم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما﴾ (١) .

والتذكير بهذا اليوم قد ورد فى السورة عدة مرات ، وفى أعقاب الحديث عن الطغاة وظلمهم ، وقد تردد ذكر القيامة أكثر من مرة فى قصة موسى عليه السلام لأنه واجه الطغاة والعصاة مثل فرعون وهامان والسامرى والسحرة ، وقد جاء التذكير بيوم القيامة فى أول عهده بالرسالة عندما ناداه سبحانه وكلفه بالدعوة إلى الله وحده ، فلا إله إلا هو ، ثم كلفه تكليفًا ثانيًا هو إقامة الصلاة ، أما التكليف الثالث فهو التذكير بأن يوم الساعة آت ، وقد أخفى الله موعدها ، يقول سبحانه :

﴿ ... إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾(٢) .

ثم تأتى الآية الخامسة والخمسون من السورة لتذكر فرعون وقومه بأنهم مخلوقون من طين الأرض ، وستكون نهايتهم إليها ، والله قادر على أن يخرجهم بعد بلاء أجسادهم منها ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾(٣) .

أما السحرة فقد أدركوا بعد إيمانهم برب موسى الجزاء الذى ينتظر البشر ، وهو إما نعيم مقيم أو جحيم كله بؤس وآلام : ﴿إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكي﴾(٤) .

ومن صور التذكير بيوم القيامة الآيات من ١٢٤ – ١٢٧ فى أعقاب خروج آدم وزوجه من الجنة ، وقد جاء تذكير الله لآدم بأن الذين سيهتدون من أبنائه بهدى الله فإنهم لن يضلوا وسيسعدون ، أما العصاة فلهم العذاب وسيأتون يوم القيامة فاقدى

---

(١) سورة طه آية ٩٩ – ١٠٤ .
(٢) سورة طه آية ١٢ – ١٦ .
(٣) سورة طه آية ٥٥ .
(٤) سورة طه آية ٧٤ – ٧٦ .

أبصارهم لأنهم نسوا آيات الله : ﴿قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[١] .

الفكرة الخامسة :

وأهم مضامين السورة – فيما نرى – فكرة التفاوت فى درجات العلم بين المخلوقات ، ثم هذا الفرق الكبير بين علم المخلوقات من البشر والملائكة وعلم الله سبحانه ، ولا يجب أن يوازن بين علم المخلوقين وعلم الله ، لأن علمهم مستمد من علمه سحانه ، وهو لا يساوى ذرة أو قطرة من بحاره الفياضة ، فهو سبحانه العليم ومن صفاته العلم ، وعلمه يمتد إلى كل شىء ندركه أو لا ندركه : ﴿إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما﴾[٢] .

فهو سبحانه عليم بما سيقال يوم القيامة ، وبما سيتخافت به المجرمون فيما بينهم ، فسوف يختلفون فى تقدير الفترة الزمنية بين موتهم وبعثهم ، وسيقول جماعة منهم إنها عشرة أيام بينما تؤكد جماعة أخرى منهم إنها يوم واحد .

يقول سبحانه : ﴿يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما﴾[٣] .

وهذا اللون من العلم لا يقرر أو يخبر عن شىء واقع عند نزول القرآن أو قبله ، وإنما يخبر أو يصور شيئا سيقع فى المستقبل غير المحدد . والاخبار عن المستقبل أمر لا يملكه ولا يقدر عليه مخلوق .

وإلى جانب أنه علم ما سيقع فى المستقبل تشير الآيات إلى أنه سيكون من المجرمين الذين سيتكلمون بصوت خافت لا يسمعه أحد غيرهم . وهى حالة تؤكد صعوبة أو استحالة تحصيل العلم إذا ما تعلق تحصيله بالبشر ، وتؤكد الآية التاسعة بعد المائة شمول علم الله وإحاطته بحال الآثمين يوم القيامة ، فهو سبحانه يعلم كل شىء صنعوه فى الدنيا وما يفكرون فيه فى الآخرة وهم لا يعلمون شيئًا عما يصنعه الله بهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

---

(١) سورة طه آية ١٢٣ – ١٢٦ .
(٢) سورة طه آية ٩٨ .
(٣) سورة طه آية ١٠٢ – ١٠٤ .

أَيْدِيهِمْ وَمَا خلفَهُمْ وَلاَ يُحِيطونَ بِهِ عِلْمًا﴾(١) وقد ورد هذا المعنى فى مطلع السورة فى قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وأخفى ﴾(٢) فهو سبحانه يعلم السر وما أخفى من السر ، والآية تتضمن خطابًا موجهًا إلى النبى ﷺ ، ومعنى هذا أنه علم الحاضر أى ما يقع فى الدنيا .

وقد يظن هنا أن ظاهر هذه الآية والآيتين السابقتين يدل على الإحاطة فقط بما يجرى وما سيجرى من أفعال أو أقوال فى الدنيا والآخرة وأنها لا تدل على معرفة حقائق الأشياء . لكن مضمونها الحقيقى يؤكد أنه علم بمعناه العام ، فلا يقتصر على الدراية ، وإنما يتعداها إلى معرفة الأشياء وجواهرها وأغراضها .

وهذا يعنى أيضًا أن علم الله سبحانه يشمل واقع الكون وما فيه من أشياء محسوسة أو معقولة يستطيع البشر إدراك بعضها بالحواس أو التخيل ، كما يشمل علمه سبحانه الغيبيات التى لا تدركها حواس البشر وتصوراتهم ، مثل إخباره عن الأمم البائدة التى لم تبق لهم باقية كعاد وثمود وإرم ، وهى أخبار ليس لها مصدر وثيق على الأرض وعلمها عند الله وحده ، كقوله تعالى فى سورة النجم : ﴿وأَنه أَهْلَكَ عَادًا الأولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانوا هُمْ أَظلَمَ وَأَطغَى﴾(٣) والجدير بالذكر أن الحفائر البشرية أثبتت وأكدت ما جاء فى القرآن عن وجود عاد الأولى وعاد الثانية على أرض الجزيرة العربية .

كما يشمل علمه سبحانه بالأمور الغيبية الإخبار عن أحداث فى المستقبل فى الدنيا والآخرة .

وتؤكد قوانين العلوم التجريبية فى زماننا صدق كل ما ورد فى القرآن الكريم من مسائل علمية أو كونية أو طبية ، كما جاءت الأحداث تؤكد صدق ما أنبأنا به القرآن من أحداث المستقبل كفتح مكة ، وغلبة الروم وهزيمتهم . وهى أمور لا يصلح فيها حدس ولا تخضع لقوانين العلوم ، وهو علم يختص به الخالق وحده . وعلم الله واسع ليس له مدى ، وهو سبحانه يفيض منه على عباده الذين اصطفاهم ، وهم يحتلفون فى قدرتهم على التلقى والتذكر ، كما يختلفون فى نوع العلم وكمه ، ومنهم من ينسى فيقع فى

(١) سورة طه آية ١١٠ .
(٢) سورة طه آية ٧ .
(٣) سورة النجم ، الآيات من ٥٠ – ٥٢ .

الخطأ كآدم ، ومنهم من يغتر بعلمه فلا يطبقه ولا ينفعه كإبليس ، ومنهم من يعرفون قدرهم ومكانتهم فلا يتخطونها إلى مكانة أعلى مثل الملائكة ، أما الأنبياء فهم أوعية من معدن نفيس لا يصدأ ، يتلقون العلم والرسالات فيبلغونها بصدق وأمانة إلى أقوامهم ، أو الذين بُعِثوا إليهم ، فلا يصبغونها بصبغة بشرية ، وتظل رسالتهم طاهرة ، وعلمهم لدنيا .

أما علم البشر فهو يختلف باختلافهم ويتلون بتفكيرهم وأهوائهم ، لذلك يكون منه النافع ومنه الضار .

ومما يلحظ فى السورة من أمر عجيب هو تردد التذكير بعلم الله ومقداره وتنوعه بنسب متساوية ، فهو يرد كل خمس آيات تقريبًا . وذلك إذا تأملنا الآيات ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٤ .

أما علم النبى ﷺ فمصدره المباشر الوحى المنزل عليه من الله سبحانه ، فهو لأمىّ الذى لم يختلف إلى معهد أو يتتلمذ على يد أستاذ ، كما أنه لا يعبر عن رأى خاص : ﴿والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[1] .

والرسول ﷺ قد تلقى علمًا كثيرًا فى معراجه إلى السماء وإسرائه ليلاً إلى المسجد الأقصى . وهذا يعنى أن النبى ﷺ قد تلقى فى ليلة واحدة ما لا يقدر على تعلمه الآخرون فى سنين .

والعلم الذى تلقاه الرسول ﷺ عن الوحى والمعراج لا يتطرق إليه الظن ، وهو علم يقينى ربانى المصدر .

وقد أمر الله نبيه الكريم بالتريث عند نزول القرآن عليه ، حتى يتم المعنى ويفرغ من نزول الآيات كاملة ، فيكمل المعنى ، وهى طريقة مثلى فى تلقى العلم . يقول سبحانه : ﴿فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علمًا﴾[2] .

---

(١) سورة النجم آية ١ – ١٠ .

(٢) سورة طه آية ١١٤ .

وخاتمة الآية تؤكد أن مصدر العلم وواهبه هو الله وحده ، كما أن طلب الزيادة فى العلم أمر محمود ، ولا يدخل فى باب الطمع المرذول ، لأن الزيادة فى الخير خير .

وقد سلك الرسول هذا المسلك الأمثل فى تلقيه للعلم وتبليغه ، ولم يغتر أو يَنْسَ أنه فيض من الله سبحانه ، وأنه ﷺ لا يتكلم إلا عن وحى أو إلهام من الله سبحانه ، وقيل إن الأحاديث القدسية وحىٌ من الله بلفظ من الرسول ، والقرآن وحى من الله بلفظ منه سبحانه .

فعلم الرسول مستمد من علم الله وجزء منه .

أما علم موسى عليه السلام وهو نبى الله ورسوله فإنه يختلف قليلاً أو فى جانب منه عن علم محمد عليه السلام . لأن موسى قد تربى ونشأ فى قصر فرعون فاكتسب كمًا معرفيا لا نستطيع أن نقدره الآن ، لكننا نستطيع أن نقول إنه عاش فى بيئة ثقافية هى قصر فرعون فترة زمنية لا تقل عن خمس عشرة سنة ، وهى فترة صباه ، وأوائل سنوات الشباب حيث قد تركها بعد قتله للمصرى هاربًا إلى أرض مدين .

والعلم السائد فى تلك البيئة وفى ذلك الزمان يعرفه المؤرخون لمصر القديمة ، وهى فى ميدان العلوم التجريبية كالطب والتحنيط والمعادن وهندسة البناء ، كما يمتد إلى الجوانب النظرية والمسائل اللاهوتية السائدة عن رع وآمون ، وهذا ما يبدو لنا بصفة عامة .

لكن هل تركت هذه المعارف أثرًا ملحوظًا فى موسى فى فترة وجوده فى قصر فرعون ؟

من الراجح لدينا أن موسى لم يتأثر بهذه المعرفة تأثرًا ترك بصماته فى حياته ، ودليل ذلك أنها لم تنعكس على حياته قبل البعثة أو بعدها ، ولعل قصة قتله للمصرى وفراره من مصر إلى مدين وزواجه من ابنة الرجل الصالح قد أنساه كل ما علق به من علم أو فكر قد تلقاه فى قصر فرعون ، أو لعل موقف فرعون من بنى إسرائيل قد زهده فى المعرفة المتعلقة به .

وقد كانت هجرته إلى أرض مدين بداية مرحلة جديدة تزود فيها من تعاليم الرجل الصالح ، وأنسته أمر الطاغية المصرى ، وكفلت له الزوجة التى أحبها وأنس إليها وبها .

وفى رأينا أن موسى حتى عودته من مدين لم يتراكم لديه كم معرفى متميز إلا بتلك الفضائل التى غرسها فيه الرجل الصالح ، فقد كان مشغولاً بالعمل خلال الأجل المتفق

عليه ، وموسى كان الشاب القوى الأمين الذى لا يهمل أو يقصر فى عمل كما وصفته الابنة لأبيها : ﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾[١] .

فانشغال موسى بعمله وإخلاصه فيه قد خلصه من العلم الذى يفترض أن يكون قد تلقاه فى قصر فرعون ، وإذا كان قد تراكم لديه كم معرفى فى أرض مدين فإنه بفضل الرجل الصالح .

وكأنَّ هذه المدة كانت لإعداده لتلقى الرسالة التى كلف بها أثناء عودته من مدين ، بعد انقضاء الأجل واستئذانه الرجل الصالح فى زيارة أمه فى مصر .

وقد بدأ التلقى الحقيقى للعلم عند عودته إلى مصر عابرًا أرض سيناء فى أيام الشتاء عندما رأى النار التى أراد أن يأتى بقبس منها لأهله ، فقد ناداه الله وعلمه وكلفه بالرسالة ، قال تعالى : ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾[٢] .

فبداية الوحى هى العلم الحقيقى اليقينى لموسى ، وهو علم متنوع بين العقيدة الصحيحة والتعبد بالصلاة والتذكر ، والعمل الصالح استعدادًا ليوم الحساب . كما امتد علم موسى إلى المعجزات التى أيده الله بها ، وهى آيات تؤكد فيض علم الله على عباده المصطفين ، فليست هناك قوة ولا علم لدى البشر حتى الآن يمكن أن يحول العصا الخشبية الجافة إلى حية كبيرة تسعى ، وماذا تفعله تلك العصا العجراء فى البحر لولا إرادة الله وعلمه .

وهنا يتحول موسى من موقف الحوار أو المناجاة مع ربه إلى موقف المتلقى الذى يحرص على ألا تفوته كلمة ، فقد أصبح متيقنًا أن علم الله وتأييده له لا يقف أمامه علم آخر ، كعلم فرعون أو السحرة . وقد انطلق موسى وأخوه بالعلم الإلهى إلى ما كلفهما الله به ، وهو الذهاب إلى فرعون لدعوته بعد أن حقق الله له كل ما طلب من وسائل الإبانة عن العلم كشرح الصدر ، وطلاقة اللسان ، وتيسير الأمور ، ووجود المساعد المخلص من أهله : ﴿قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرًا من أهلى. هارون أخى. اشدد به أزرى . وأشركه

(١) سورة القصص آية ٢٦ .
(٢) سورة طه آية ٩ – ١٣.

فى أمرى . كى نسبحك كثيرًا . ونذكرك كثيرًا . إنك كنت بنا بصيرا . قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى ﷺ[١] .

وعلم موسى عن الأشياء قبل التكليف لا يختلف عن علم العامة ، فهو لا يدرى عن العصا التى فى يده أكثر من كونها قطعة من خشب ، ومنافعها هى منافع كل العصىّ المعروفة ، فهو يتحامل عليها ، ويزجر بها غنمه ، ويخبط بها أوراق الشجر فيتساقط لتأكله أغنامه ، وله حاجات أخرى فيها .

لكن علمه بالمنافع الأخرى التى قد تكون لها أمر لم يخطر له على بال ، فلم يدرك أن الله سيجعل فيها آيات له عندما سأله عما فى يمينه . والله جل ثناؤه يعلم ما فى يده قبل أن يسأله وقبل أن تخلق ، وقد أراد الله جل ثناؤه أن ينبهه بالسؤال إلى أن يده يمكن أن تقبض على شىء عظيم ، وإلى أن علمه بأسرار الأشياء لا يذكر ، ولما أراد الله أن يدربه على مواجهة العصاة كشف له عن آية من آياته فى أتفه شىء يمكن أن يتصوره وهى العصا ، فقد أمره الله أن يلقى العصا من يمينه على الأرض ، فارتجف وتملكه الخوف عندما رآها حية تنتفض وتتحرك فأمره سبحانه أن يأخذها فارتجف وحاول أن يأخذها بكم جبته الصوفية فنهاه الله عن ذلك فأخذها بيده فعادت بأمر الله عصا كما كانت .

ويقول المفسرون إن عصا موسى كانت ذات شعبتين ، وقد صارت الشعبتان فاها للحية[٢] .

كما يعلل المفسرون سبب خوف موسى من الحية بأنه عرف ما لقى آدم منها عندما تمثل الشيطان له فى صورة حية فى الجنة[٣] .

وهذا تدريب له وتعليم على كيفية مواجهة العصاة ، وثبوت قلبه بعد مازال عنه الخوف أول مرة .

لقد رأى موسى فى الشجرة المنيرة ما يجعله يطمئن إلى أنه نبى ، وهو كاف لنفسه ، لكن هذ البرهان لا يؤكد للآخرين نبوته لأنهم لم يروها ، فأكد الله له النبوة والرسالة بالعصا واليد .

---

(١) سورة طه آية ٢٥ – ٣٦ .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٦ ص ٤٢٣٠ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٦ ص ٤٣٢٠ .

ولم يصل علم موسى إلى ما فى سؤال الله من إشارات ودلالات عميقة ، مما يؤكد ضآلة علمه وأنه محتاج إلى أن يتلقى من ربه علمًا غزيرًا وتدريبًا إلهيًا .

لقد سأله ربه ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ فأجاب موسى إجابة رأى المفسرون فيها خطأ ظاهرًا عندما قال : ﴿هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى﴾ فكان إيراد اسم الإشارة للبعيد كافيًا لأن يتنبه إلى أن فى العصا سرًا أودعه الله فيها ، لكنه لم يفطن إليه ، ولم يتوقف أمر موسى عند قصوره عن إدراك دلالة ﴿تلك﴾ بل وقع فى الوهم والخطأ عندما أضاف العصا لنفسه فقال : ﴿هى عصاى﴾ .

قال ابن الجوهرى : إن الله عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه فى ذلك الموطن ، فقيل له : ألقها لترى فيها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تنضاف إليك[1] .

أما علم موسى عن مستقبل دعوته لفرعون فقد كان مخالفًا لما وقع ، فلقد ذهب موسى وأخوه إلى فرعون مؤيدين بآيات قوية من الله ، مما حدا الأمل بهما إلى توقع إيمان فرعون وتصديقه لهما بعد أن رأى آيات الله المعجزات ، ولقد جاءت النتيجة مخالفة عندما كذبهما وأرجع المعجزات إلى تفوقهما فى السحر .

وإذا كان علم موسى قد قصر عن إدراك النتيجة فإن الله يعلم أمر فرعون معهما قبل الذهاب . وهنا يبرز سؤال : إذا كان الله على علم بنتيجة دعوة موسى وهى تكذيبه لها ، فما جدوى تلك الدعوة .. ؟ .

وهل يعنى تكذيب فرعون لهما فشل الدعوة الموسوية ؟ .

نرى والله أعلم أن الدعوة الموسوية قد حققت كل غاية لها بإرادة الله ، فقد آمن السحرة برب موسى وهارون وانفضوا من حول فرعون الذى توعدهم بالعذب وصاروا مؤمنين أقوياء ، كما آمن بنو إسرائيل بموسى ، أما فرعون الكافر فقد لقى مصيرًا مؤلمًا ، صار عبرة وموعظة حية فى كل زمان بعده تؤكد على النهاية البشعة التى تلحق بأصحاب الطغيان والتجبر والظلم ، وتعلن للبشرية أن الله ينصر دينه ويؤيد رسله ، ولو تصورنا إيمان فرعون برب موسى لما كان فى قصة موسى شىء من الاعتبار والموعظة النافعة وإيمان فرعون لا يزيد ولا ينقص الرسالة الموسوية فى شىء لكن تكذيبه وكفره وطغيانه والعاقبة التى لقيها دروس نافعة ، ومواقف لا تفرغ من دلالاتها الخلقية السامية

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٢٦ .

وقد أخفى الله العلم بنتيجة دعوتهما لفرعون حتى يذهبا إليه ولا يتكاسلا فى التنفيذ ، وليبلوا معه البلاء الحسن ولو أنهما علما تلك النتيجة لذهبا إلى فرعون طاعة لأمر الله فقط ، دون أن يكون لديهما الأمل فى النجاح ، والحالتان مختلفتان ، وقد نفذا أمر الله سبحانه كما طلب منهما فى قوله : ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليِّنا لعله يتذكر أو يخشى ..﴾[1] .

أما مجادلة فرعون لموسى فإنها تخبر عن طبيعة العلم الذى يحمله كل منهما ونوعه ، والمجادلة كانت فى أسئلة فرعون الموغلة فى مسائل غيبية ميتافيزيقية عن الإله الذى أرسل موسى إليه ، وعن أخبار الأمم التى بادت منذ القرون الأولى .

وإجابات موسى عن أسئلة فرعون إحالات إلى علم الله الذى يحيط بكل شىء فى الماضى والمستقبل ، وموسى وغيره لا يقدرون على معرفة هذه الأمور ، وقد أراد فرعون بمثل هذه الأسئلة أن يقهر موسى ويفحمه ، وفرعون نفسه لا يستطيع الإجابة عن مثل هذه الأسئلة التى تضرب فى المجهول ، بينما إجابات موسى تقوم على اليقين بإحالتها إلى علم الله سبحانه .

أما **مصادر العلم** فقد أرجع فرعون مصدر علم موسى إلى السحر ، ولم يثق فى أن معجزات موسى عطاء من الله ، وقد أراد فرعون أن يقهر موسى بعلم السحرة الذين قد تجمعوا فى يوم مشهود ، وقد اختلف المفسرون فى تقدير عددهم ، بينما يرى ابن عباس أن عددهم اثنان وسبعون ساحرًا ، يرى غيره أنهم أكثر من ذلك بكثير ، وقيل إنهم أربعة آلاف ، وقيل أربعة عشر ، وقال ابن المنكدر : إنهم كانوا ثمانين ألف ساحر[2] . وقد أوغل بعضهم فى المبالغة فذكر أنهم تسعمائة ألف ساحر ، وهى مبالغة تظلم وتوشى بأهل مصر فى ذلك الوقت ، فلا نستطيع أن نتصور أن ثلث سكانها سحرة . ومن تلك المبالغات أيضًا تقديرهم لعدد العصى والحبال التى استخدموها فى السحر فى ذلك اليوم ، فلقد قالوا إنها حمل ثلاثمائة بعير[3] .

وقد بنى السحرة علمهم على خداع البصر اعتمادًا على علم تجريبى حقيقى ، فقد لطخوا عصيهم وحبالهم بمعدن الزئبق اللألاء ، وقد انعكست عليها أشعة الشمس مما قد

---

(١) سورة طه آية ٤٢ – ٤٤ .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٥٤ .
(٣) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٢٦٣ .

تسبب فى انكسار الأشعة ، فيخيل للناظر أنها تنتفض أو تتحرك ، وقد ساعد على ذلك تمدد معدن الزئبق بالحرارة الصادرة عن أشعة الشمس . وقد خيل لموسى أن الأرض قد امتلأت حيات تسعى على بطونها ، فأحس بالخوف : ﴿فأوجس فى نفسه خيفة موسى﴾[١] . لكن الله سبحانه قد ثبت فؤاده ، وأزال عنه الخوف عندما أوحى إليه بقوله : ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾[٢] .

فعِلْم السحرة قائم على حقائق علمية استخدمت فى خداع الناظرين ، وهى قوانين تجريبية متصلة بخواص المعادن والضوء . وقد أرجع فرعون آيات الله التى حملها موسى إلى ما يعتمد عليه السحرة من قوانين المواد .

أما السحرة أنفسهم صانعو الخدع البصرية فقد أدركوا أن ما جاء به موسى فوق قدراتهم وسحرهم ، وأن عصا موسى قد تحولت إلى حية حقيقية تسعى وتتحرك وتلقف الحبال والعصى الكثيرة مع صغر حجمها . وقد تأكد السحرة أنفسهم أن علم موسى والآيات التى حملها موحى به من الإله ولا يقدر عليه مخلوق ، وقد آمنوا برب موسى وهارون غير مبالين بفرعون الذى توعدهم بالعذاب والقتل .

لقد غضب فرعون على السحرة وأنكر عليهم إعلانهم الإيمان برب موسى ، وقد ارتبط ذلك الغضب بتكبره وغروره الكبيرين ، فقد خذلوه عندما هزموا أمام معجزات موسى ، كما خرجوا عن طاعته عندما آمنوا برب موسى ، ولعل عدم استئذانهم منه فى اتباع موسى كان أكثر تصرفاتهم إيلامًا له مما يكشف عن شخصية فرعون الموغلة فى التغطرس والغرور ، والآية الكريمة تشير إلى ذلك ﴿فألقِىَ السحرة سُجَّدًا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾[٣] .

وغَضَبُ فرعون الذى يعبر عن إهانته وجرح كبريائه أمام جموع النظرين هو الذى جعله يلقى الاتهامات الباطلة على السحرة وموسى دون اعتماد على بينة حقائق أو أسس علمية ، فقد اتهم السحرة بأنهم تلاميذ موسى فى السحر ﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر﴾[٤] .

---

(١) سورة طه آية ٦٧ .
(٢) سورة طه آية ٦٨ .
(٣) سورة طه آية ٧٠ - ٧٠ .
(٤) سورة طه آية ٧١ .

إن فرعون يعلم أن السحرة لم يتعلموا السحر عن موسى ، فهم يمارسونه قبل ولادة موسى ، وأنه لم يختلط بهم لهجرته إلى أرض مدين ، وأن السحر فن متوارث فى البيئة المصرية ، لكن فرعون قد وجه هذه الاتهامات التى تعبر عن ضعف وشعور بالهزيمة ، وليثبت حذق موسى فى السحر ، وليصرف الناس عن الإيمان بموسى ، ولذلك نجده يعلن الوعيد للسحرة ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابًا وأبقى﴾[١] . ففرعون لم ينطلق فى دعواه أو اتهامه من واقع أو علم حقيقى صادق ، بل هى صرخات غضب محاطة بأكاليل من كذب وتضليل ، كما تعبر عن موقف ضعيف يستره بالأصوات العالية والوعيد والتهديد .

لكن السحرة قد تغير موقفهم بتغير علمهم ، لقد جاء السحرة فى يوم الزينة وهو موعد اجتماعهم – وهم مستعدون متحفزون بحيلهم لتحدى موسى ، وقد حذرهم موسى من عاقبة الانسياق فى التكذيب والافتراء على الله كذبا ، والتشكيك فى معجزات الله ، ووصفهم لها بأنها سحر ، ومن يفعل ذلك منهم فمصيره الهلاك ، قال تعالى : ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . قال لهم موسى : ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾[٢] .

ومن الممكن أن يكون إنذار موسى للسحرة قد حدَّ من هجومهم وتدافعهم بالافتراء على موسى وأخيه ، وقد دلت الآية التالية على شىء من التريث الذى اتصفوا به ، فأخذوا يتشاورون فى أمر موسى وأمرهم سرًا ، قال تعالى : ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾[٣] .

وقد اختلف المفسرون فى تقدير ما أسره السحرة ، ورجحوا أن يكون ما قالوه هو : إن كان ما جاء به سحرًا غلبناه ، وإن كان من عند الله فسنكون أول المؤمنين . ويرى الكلبى أن ما أسروه هو قولهم : إن غلبنا اتبعناه ، ويعتمد على ما ظهر بعد ذلك منهم[٤] .

وقد واجه فرعون تحذير موسى للسحرة وما تركه من أثر فيهم بتحريض منه لهم واستعدائهم على موسى وهارون عندما قال هو وقومه : ﴿إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾[٥] .

---

(١) سورة طه آية ٧١ .
(٢) سورة طه آية ٦٠ – ٦١ .
(٣) سورة طه آية ٦٢ .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٥٩ .
(٥) سورة طه آية ٦٢ .

أى أن موسى وهارون يريدان إخراج السحرة عن عقيدتهم الصحيحة[١] .

ويجوز أن يكون هذا من كلام السحرة ، لكننا نميل إلى أن يكون هذا الكلام لفرعون وجنوده ، والله أعلم .

ودليل ذلك أن السحرة تأدبوا مع موسى فخيروه بين تقدمه عليهم فى الإلقاء أو انتظاره بعد إلقائهم ، فكان لموسى الرأى الذى يناسبه ، فترك لهم السبق فى الإلقاء حتى تأتى معجزته دامغة ، لا يعقبها فعل أو قول . قال تعالى : ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا﴾[٢] .

ولعل هذا التأدب الذى أبداه السحرة لموسى يعبر عن تفكيرهم فى دعوته وتحذيره السابق لهم ، وكانت مشاوراتهم مظهرًا لذلك ، ويمكن أن يكون ذلك سببًا فى الإسراع بتصديق الرسالة الموسوية ومواجهتهم بعد ذلك لفرعون فقد ازداد علم السحرة برب موسى بعد أن رأوا آيات الله الحقيقية مما كان سببًا قويًا فى تحولهم وإيمانهم ، ومعنى هذا أن علمهم قد تحول أو ارتقى . ويقول عكرمة[٣] : إن السحرة لما سجدوا أراهم الله منازلهم فى الجنة وهم ساجدون مما دفعهم إلى تحدى فرعون وجنوده غير مكترثين بتهديده لهم ، كما تشير الآية الكريمة ﴿قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا﴾[٤] .

فقد عزز علم السحرة الحقيقى موقفهم وقواه وجعلهم لا يبالون شيئًا من تهديد فرعون . فقد كان علمهم الذى تزودوا به من الله نافعًا وفعالاً .

وهنا نتوقف عند نفع العلم وإضراره بصاحبه ، وقد رأينا مدى أثر العلم فى تغير موقف السحرة وإيمانهم بالله ، أما فرعون فلم يتأثر بتحذير موسى له وجنوده ، ولم يقتنع بالآيات الكبرى التى حملها موسى إليه ، وأغلق قلبه وعقله على تفكيره ومعتقده ، ولم تعرف السماحة طريقًا لديه فكان متعصبًا متجبرًا متكبرًا ، فتوقف علمه عند حدّ معين ، ولم يتطور أو ينتفع كما انتفع السحرة بما سمعوه ورأوه من موسى حامل الرسالة الإلهية . لقد منعه تكبره من الانتفاع بالعلم الذى أتيح له ، وجعل بينه والعلم الجديد جدارًا من العناد والمكابرة .

---

(١) انظر جامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٦٠ .
(٢) سورة طه آية ٦٥ – ٦٦ .
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٦٥ .
(٤) سورة طه آية ٧٢ .

ولم يتوقف عناد فرعون عند الامتناع عن تحصيل العلم الذى أتيح لـه – بـل تعـدى ذلك إلى خطأ فى تطبيق مالديه من علم ، وذلك عندما أجرى الأمور الخارقة للعادة مجرى الأمور العادية ، وجاءت النتيجة غير محققة لآماله ، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما خرج موسى بقومه من مصر ، وتتبعهم فرعون يريد الفتك بهم ، وظن أنهم لن يفلتوا من عذابه ، لأن البحر سيوقف مسيرتهم ، ولما جاءت معجزة الله الكبرى بضرب موسى البحر بعصاه ، فانفلق الماء أمامهم ، وانشق لهم طريق ساروا فيه مع موسىعند ذلك ظن فرعون أن ما أتيح لموسى متاح له ، ولم يتعظ أو ينتفع بما رآه من آيات ، فالطريق الذى تشقق لا طين فيه ولا ماء ، والمياه التى تحيط به مرتفعة كالجبال ، وسلوك موسى وقومه فى ذلك الطريق خصوصية لهم فقط ، وهى أمور لا تجرى بها العادة ، ولم يرها الناس من قبل .

ويقول المفسرون إن فرعون قد ادعى أن البحر قد صنع ذلك الانفلاق هيبة منه ، وهذا تضليل لجنوده وادعاء باطل منه[1] .

ولفرعون أن يدعى لنفسه ما يشاء ، ولمن يسمعه حرية تصديقه أو تكذيبه إن كانت لديه حرية ، لكن تتبع فرعون لموسى وسيره فى طريق مخصوص لغيره – أمور تؤكد فساد تطبيق معارفه ، فقد أخطأ فى قياسه لأن المقدمات التى اعتمد عليها غير صحيحة أو فاسدة ، فلحق به ضرر كبير لم يتوقعه عندما غطاهم ماء البحر ، فغرق فرعون وجنوده الذين ضللوا بادعائه وكذبه ، قال تعالى : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ، فاضرب لهم طريقًا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتْبَعَهُمْ فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[2] .

لقد تيقن موسى بعلم الله الذى أوحاه إليه – أنه ناج من فرعون الذى لن يدركه ، ومن جبال الموج التى لن تغرقه ، ولذلك سلك ذلك الطريق بلا خوف . فهو مطمئن إلى أن ما علمه من الله حق ونافع . أما فرعون فقد لحقه الضرر لأنه حجب نفسه عن علم الله بالتكبر والعناد معتقدًا أن ما حصله من علم لا يدانيه علم الآخرين .

أما السامرى الذى أضل بنى إسرائيل الخارجين من مصر مع موسى – فهـو يحمـل علمًا تجريبيًا سخره فى الإضرار بالبشر ، وفتن به بنى إسرائيل ، لقد صنع تمثالاً لثور

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٦٩ .

(٢) سورة طه آية ٧٧ – ٧٩ .

شاب من الذهب ، وصنع التماثيل من المعادن يتطلب من المثال أن يكون على معرفة بخصائص المعدن الذى يشكله بالصهر أو التسخين ، كما يتطلب أيضًا معرفة بقابلية ذلك المعدن للطرق والسحب ، وقد يكون قدرًا من العلم كافيًا لمن يصنع تمثالاً صلدًا مصمتًا ، لكن تمثال السامرى أجوف مفرغ من الداخل مما يحدث صوتًا ذا رنين يخالف الصوت الصادر عن التمثال المصمت ، وقد انتفع السامرى بالصوت الرنان الصادر عن تمثال الثور الأجوف الذى صنع من الذهب الخالص ، فجعل فى التمثال خروقًا تسمح بمرور الهواء فى جوفه ، وهنا يظهر لون آخر من معرفته العلمية المتعلقة بخصائص الصوت الفيزيائى ، وهذه المعرفة هى التى مكنته من صنع التمثال الذهبى بهذه الكيفية ، حيث يندفع الهواء من الفتحات إلى جوفه فيحدث احتكاكًا واصطدامًا يتولد عنهما صوت ناتج عن اهتزاز معدن الذهب والهواء داخل التمثال ، وهذان الصوتان المترددان يختلطان فى صوت واحد يتميز بالقوة والرنين والطول ، فيحدث فى سامعيه أثرًا غير قليل وبخاصة عند العوام .

ومن المقبول لدينا أنّ الجو النفسى يوجه لتفكير ويلونه ، فالصوت صادر عن ثور ، وصوت الثيران خوار مألوف عند بنى إسرائيل الذين عاشوا فى مصر لذا لا يمتنع أن يتصور بنو إسرائيل الصوت الصادر عن التمثال أنه خوار حقيقى لثور حىّ .

وإلى جانب هذه المعرفة العلمية المتعلقة بخواص المعادن والصوت الفيزيائى نجد السامرى بارعًا فى صنع التماثيل ، وهذه البراعة ملكة فنية لا يقدر على تطويعها إلا المدربون ، كما لا يتمتع بهذه الملكة أو غيرها إلا القلائل ، فالسامرى على قدر من المعرفة العلمية التطبيقية إلى جانب مهارته الفنية التى ظهرت فى تشكيل تمثال محكم الصناعة من معدن نفيس .

ومعرفة السامرى ليست قاصرة على جوانب من العلوم التطبيقية ، والمهارة الفنية التى تمكنه من تشكيل التماثيل ، بل لديه معارف مكتسبة من البيئة التى عاش فيها أو انتقل منها أو إليها ، ونحن نقصد بذلك ما كان فى بيئة مصر والشام والعراق والهند من تقديس البقر ، ففى البيئة المصرية كان عجل أبيس معبودًا أو مقدسًا كما تشير إلى ذلك نقوش الجدران فى المعابد ، والبرديات المحفوظة فى المتاحف والمراكز الثقافية ، وعبادة البقر أمر مشهور عند الهنود ، ولا تخلو بيئة الشام من هذا التأثر ، ونحن نذكر هذه البيئات لأن المفسرين اختلفوا فى أصل السامرى ونسبوه إلى بيئات

مختلفة : فقد أورد القرطبى أن ابن عباس قال : إن السامرى من قوم يعبدون البقر فوقع بمصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره لا بقلبه[١] .

وقيل كان رجلا من القبط ، وكان جارا لموسى آمن به وخرج معه .

وقيل كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام ، وقال سعيد بن جبير : كان من أهل كرمان[٢] .

والذى نميل إليه أنه اكتسب ثقافته ومعرفته العلمية والفنية من مصر التى كانت تعبد عجلاً هو عجل أبيس المقدس فى مصر القديمة ، وكانت مصر تدفن هذا العجل المعبود فى مقبرة معروفة فى سقارة الآن هى مقبرة الترابيوم[٣] .

ونحن نستبعد كونه من أهل كرمان لبعدهم عن بيئة مصر وصعوبة امتزاجهم بأهل مصر وبنى إسرائيل . كما نستبعد كونه من القبط لأن العصر القبطى جاء متأخرًا عن زمن موسى بثمانية أو تسعة قرون على الأقل ، إلا إذا كانت كلمة قبط تعنى المصريين بصفة عامة عند المفسرين .

وإذا تأملنا كلمة سامرى فإننا نقترب من تحديد هويته ، وكلمة (سامر أو سمر) تعنى فى المصرية القديمة (الصديق) وتردد كثيرًا فى تلك اللغة كلمتان هما (سمر دعنى) أى الصديق الأوحد ، وهو لقب يطلق على الخاصة الأصفياء ، وقد يطلق على الكاهن الكبير ، وكون السامرى جارًا لموسى يقرب لنا ويرجع لدينا صداقته له وإيمانه به وخروجه معه .

ولعل كلمتى (سامر دعنى) تفسر المعرفة اللاهوتية التى اكتسبها من البيئة المصرية ، وكونه الصديق الأوحد لموسى أو غيره يضعه فى درجة الرجال ذوى القدر ، وكونه كاهنًا كبيرًا يؤكد لنا هذه المعرفة اللاهوتية .

ويلحظ على ديانات مصر والشرق الأدنى بصفة عامة أنها تتفق على عبادة الشمس ، وقد تمثل ذلك بوضوح فى دور أمنحتب الرابع المعروف بإخناتون ، أما ثورته الدينية التى تدعو إلى توحيد العبادة لقرص الشمس – فقد أحدثت أثرًا ملحوظًا فى التفكير اللاهوتى المصرى ، وهيأت نفوس عدد من المصريين – كالسحرة – لتقبل فكرة التوحيد

---

(١) القرطبى جـ ٦ ص ٤٢٧٣ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٦ ص ٤٢٧٤ .

(٣) انظر كتاب الديانة المصرية القديمة تأليف أدولف أبرمان – الهيئة العامة للكتاب .

التى جاءت فى دعوة موسى ، وقد آمن به السامرى لتوافق دعوة موسى إلى عبادة الإله الواحد مع التراكم المعرفى اللاهوتى الذى خلفه إخناتون .

لكن وجه الخلاف الذى حدا بالسامرى إلى الانشقاق هو أن الديانة المصرية القديمة تصنع وتتخذ للإله رمزًا ماديًا من المخلوقات كالعجل من الحيوان أو طائر أبى قردان من الطيور .

ومن الواضح أن الإله الواحد مختلف فى ديانة المصريين القدماء عن الديانة الموسوية ، فقرص الشمس المعبود عند المصريين هو مصدر الخصب والنماء على الأرض ، وهو عندهم مصدر الحياة الذى يجب أن يعبد ، وقد اختاروا رموزا لهذا الخصب ، منها ثور الشاب الذى يعيش بين قطيع من مئات البقر ، فهو يمثل الخصوبة لها بقوته واكتمال جسده .

وتصنع تماثيل لهذا الغرض لتذكر بالإله الأكبر واهب الخصب والحياة على الأرض ، والناس بصفة عامة لا يتذكرون المرموز إليه ، ويجسدون الرمز ويجعلونه الأصل ، فلا عجب أن يُعْبَد العجل ويُسْجَد له . ولا عجب أن يجسد السامرى تمثالا للعجل ، ولا عجب أن يتأثر بنو إسرائيل بتمثال الثور الشاب وقد عاشوا بين المصريين وتأثروا بهم .

فنحن أمام شخصية خطيرة له علم متنوع بين التجريب والتطبيق ، ولديه علم نظرى لاهوتى مستمد من البيئة التى عاش فيها ، وهو إلى جوار هذه المعرفة المتنوعة يتمتع بملكه فنية ومهارة فى صنع التماثيل من المعادن ، ونستطيع أن نقرر أن هذه المعارف العلمية والفنية هى التى وقفت حائلا أمام استمراره فى طريق الإيمان الصحيح ، والعقيدة الصادقة التى دعا إليها موسى عليه السلام ، وهى التى ردته إلى عقيدته الأولى عندما سنحت له الفرصة ، ووجد نفسه قادرًا على تصريف بنى إسرائيل على حسب هواه ، وهم كما تخبر عنهم تصرفاتهم قطيع بلا تفكير .

والسامرى صاحب حيلة يغذيها ذكاء غير قليل ، فقدرته على التأثير فى بنى إسرائيل الخارجين من مصر دليل واضح على ذلك ، وهم ذوو عدد غير قليل ، فالمفسرون يذكرون أن عدد غير قليل ، فالمفسرون يذكرون أن عدد بنى إسرائيل الذين خرجوا من مصر كان اثنى عشر ألفًا ، وكان جميع بنى إسرائيل ستمائة ألف[1] .

لقد خدعهم بذكائه فى المرة الأولى عندما أراد أن يجمع الذهب منهم ، وهو متمثل فى الحلى التى أخذوها من المصريين بالكذب ، فلقد استعاروا من المصريين تلك الحلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٧٤ .

وهم يدعون أنهم سيتزينون بها فى يوم عيد لهم ، ولم يكن لهم آنذاك عيد معروف ، وقد خرجوا مع موسى حاملين ذلك الذهب ، وهذا عمل يدخل فى باب الآثام ولا يدل على عقيدة قوية .

وعندما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ترك بنى إسرائيل وأوصى أخاه هارون برعاية شئونهم .

وقد استغل السامرى غياب موسى عن بنى إسرائيل الذين خرجوا معه من مصر ، وصور لهم أن موسى غاب عنهم واحتبس عليهم من أجل ما عندهم من حلى وذهب ، فقاموا بجمعه ودفعوه إلى السامرى فرمى به فى النار وصاغ لهم منه عجلاً وذلك كما يقول قتادة[1] .

وقد تمكن السامرى بهذه الحيلة أن يجمع الذهب الذى بين أيدى بنى إسرائيل مستغلا غياب موسى عنهم ، كما استغل أيضًا قدرته فى إشعار بنى إسرائيل بالذنب عندما استولوا بالكذب على حلى المصريين ، وبالخدعتين صار الذهب كله بين يديه .

وقد استطاع بذكائه أيضًا أن يخدع بنى إسرائيل مرة ثانية ، عندما أوهمهم بأن تمثال العجل هو إله موسى وبنى إسرائيل ، وقد خرج يطلبه فأخطأ لأنه تركه هنا ، وقد صدق بنو إسرائيل أن موسى قد أخطأ الطريق إلى ربه ، وأن العجل هو الإله الذى يجب أن يعبد ، وقد سجد بنو إسرائيل للعجل عندما صدر منه صوت خيل لهم أنه خوار حقيقى لعجل حىّ .

قال تعالى : ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك ربِّ لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا . قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمِّلنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا﴾[2] .

وإذا كان السامرى قد تمكن من خداع بنى إسرائيل وتضليلهم مرتين أو أكثر ، فهل تمكن بذلك الدهاء أن يخدع هارون عليه السلام ؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٧٥ .

(٢) سورة طه آيات من ٨٣ – ٨٩ .

يبدو الأمر فى ظاهره أنه كذلك ، وهذا الذى يمكن أن يفهم لأول وهلة من قول ابن عباس رضى الله عنهما حيث يروى عنه أنه قال : لما قلبت الحلى فى النار جاء السامرى وقال لهارون : يانبى الله ألقى ما فى يدى ؟ وهو يظن أنه كبعض ماجاء به غيره من الحلى . فقذف السامرى التراب فيه وقال : كن عجلاً جسدًا له خوار . فكان كما قال للبلاء والفتنة ، فخار خورة واحدة لم يتبعها بمثلها[١] .

والذى قذفه السامرى من قبضته فى النار تراب أخذه من الأرض التى وطأها فرس جبريل الذى شق لهم البحر ، وذلك على مايقول قتادة[٢] . وقد قال بهذا أيضًا السدى والحسن .

وعلى هذا القول يكون العجل حقيقيًا من لحم ودم وله خوار حقيقى .

أما مجاهد فيرى أنه خار بسبب الريح ، وكان السامرى قد عمل فى جسد العجل خروقا ، فإذا دخلت الريح إلى جوفه خار ولم يكن به حياة[٣] .

والقرآن الكريم يؤكد أن العجل لا يرد على كلام ، أو يستجيب لنداء ، ولا يكرر الخوار ، ولا يضر ولا ينفع : قال تعالى : ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعا﴾[٤] .

وهذا يُرَجّح لدينا أن العجل كان تمثالا فقط ، أو جسدًا بلا حياة . وأن ما ذكر عن قبضة التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل لا قيمة لها إلا بأمر الله وإرادته ، ومعنى هذا أنه لم يخدع هارون عليه السلام ، لأن كذب السامرى وخدعته لم يترتب عليها أمر مؤكد .

وسلوك السامرى مع هارون لا يقلل عن عقله وتفكيره ، لأن الناس يؤاخذون بالمظاهر ، ويحاسبون عليها ، أما بواطن الأمور والأحداث فعلمها وتصريفها موكل إلى الله سبحانه . ويؤكد ذلك مارواه حماد عن ابن عباس قال : مرّ هارون بالسامرى وهو يصنع العجل فقال : ما هذا ؟ فقال : ينفع ولا يضر . فقال : اللهم أعطه على ما سألك على ما فى نفسه . فقال : اللهم إنى أسألك أن يخور[٥] .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٧٥ .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٧٥ .
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٧٥ .
(٤) سورة طه آية ٨٨ .
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٧٥ .

وهذا الموقف يشبه الموقف السابق فى ظاهره ومعناه العميق ، فهارون ليس مسئولا عن دهاء السامرى وسوء نيته . كما أن خوار الثور – إذا حدث يكون من أجل دعوة هارون . هذا إذا أخذنا برأى من يقول إن العجل كان حياً بدمه وجسده ، وهو رأى لا نرجحه .

أما عن اتباع بنى إسرائيل للسامرى فهو لا يدل على تفوقه العقلى على هارون ، وإنما يعنى ضعف إيمان بنى إسرائيل ، وانخداعهم بقول السامرى وفعله . ولم يستطع هارون وحده أن يمنع فتنة السامرى ، لأنه خشى أن تدب الفرقة بين بنى إسرائيل ، وهذه حجة هارون عندما لامه موسى على عدم عنايته بالقوم ، ومنعهم من الخوض فى الفتنة : ﴿قال يا بنؤم ، لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى﴾[1] .

وفى الحقيقة لم يقصر هارون فى حق الدعوة فلقد نصحهم وذكرهم بربهم الرحمن ، ولم يكن نصحه لهم بذى جدوى قال تعالى : ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعونى وأطيعوا أمرى﴾[2] ، ولم يطع بنو إسرائيل لهارون أمرً ، وقد جهروا بالعصيان وأعلنوا أنهم سيبقون على عبادة العجل حتى يعوج موسى إليهم : ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾[3] وما الذى تعنيه عودة موسى إليهم بعد أن اتبعوا الضلال ؟ ربما صدقوا قول السامرى بأن إله موسى هو العجل ، وهو بينهم وقد أخطأ السبيل إليه ، فهم ينتظرون عودته لكى يتبارى مع السامرى وليتضح لهم حقيقة الرب . وقد يكون انتظارهم له لمعاتبته على تركهم هذه المدة . وقد يكون طلب الانتظار من أجل المماطلة والتسويف ، ومعنى هذا أنهم يدافعون عن موقفهم الجديد .

هذه كلها احتمالات تؤكد أن الفتنة قد تملكتهم ، وأن السامرى قد سخر العلم المادى والنظرى فى الشر ، فقد ساقهم إلى غايته ، فساروا طائعين سير القطيع الذى يسلم القيادة والتفكير إلى فرد واحد من أفراده ، أو فرد آخر ليس منه ، وهذا يؤكد حقيقة هامة هى أن عقل الجماعة الغافلة لا يساوى عقل فرد نشط واحد ، فعقل السامرى أكبر من عقل بنى إسرائيل .

---

(١) سورة طه آية ٩٤ .
(٢) سورة طه آية ٩٠ .
(٣) سورة طه آية ٩١ .

وإذا كان السامرى قد تفوق بعلمه الاكتسابى وذكائه على بنى إسرائيل فهو لم يتفوق على موسى بعلمه اللدنى ، بينما نجد السامرى ضعيفا أمام موسى لا يستطيع أن يواجهه بالعلم الذى حصله واكتسبه من البيئة المصرية ، ولم يستطع أن يراوغ موسى أو يخدعه لأن موسى قد جاء بالحق ، وجاء السامرى بالباطل .

وشخصية موسى تختلف إلى حد كبير عن شخصية هارون ، فموسى حمل الرسالة ، وهارون رسول مكمل ومساعد للرسالة الموسوية ، وموسى أقوى من هارون ، وأكثر شجاعة فى مواجهة الأمور ، فهو الذى يتصدر للأحداث الكبيرة ، وهو الذى واجه فرعون وهو الذى تصدى لفتنة السامرى الذى لم يستطع مقاومته .

وشخصية موسى شديدة الانفعال ، فهو الذى أخذته الحمية لنصرة رجل من بنى جلدته على المصرى الذى خرّ صريعا ، وهو الذى عاد غاضبا أسفًا إلى قومه بعد أن علم بفتنة السامرى لهم ، ويقول المفسرون إنه لم يملك نفسه فى ذلك الغضب فشق قميصه[1] ، كما تظهر تلك الشخصية الانفعالية بوضوح عندما ألقى التبعة الكبرى لتلك الفتنة على هارون ، فقد امتدت يده إليه وشد لحيته وأمسك بخصلات الشعر فى رأسه مما دعا هارون إلى استنكار ما فعله به ﴿قال : يابنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى﴾ .

وهذا يكشف الجانب الآخر من شخصية هارون الهادئة التى تتردد عدة مرات قبل القدوم على أى عمل ، وربما يرجع نجاح فتنة السامرى إلى ذلك التردد المسيطر على شخصيته ، وإلى عدم التسرع فى حسم الأمور التى تستوجب ذلك ، وهذا يخالف الموقف الإيجابى لموسى من السامرى ، قال تعالى : ﴿قال : فما خطبك يا سامرى . قال : بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفًا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا﴾[2] .

وإذا كان لنا أن نستوفى جوانب العلم فى السور فإننا نتوقف عند الإشارة الجامعة التى تضمنت الملائكة .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٧٤ .

(٢) سورة طه آيات ٩٥ – ٩٧ .

وعلم الملائكة قد ورد فى السورة فى آية واحدة هى قوله تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ [١] ، والآية فى ظاهرها لا تتحدث عن العلم ومظاهره وأنواعه ، ولكن إيحاءها يمتد إلى آفاق علمية واسعة ، والملائكة يطيعون أمر الله سبحانه فى السجود لآدم ، لأنهم علموا أن علمهم محدود ، وأن الله سبحانه يعلم ما لايعلمون ، وقد جاء بعد ذلك فى قصة خلق آدم تعجب الملائكة من خلقه عندما أخبرهم سبحانه بذلك الخلق ، وانكروا على قدر علمهم أن يوجد مخلوق غيرهم يعمر الأرض وينشر فيها الخير ، وقد اثبت لهم خالقهم فى حوار تعليمى أن علمهم قاصر ، ولا تخرج معرفتهم عما علمهم ربهم ، وأن الله قادر على أن يعلم آدم ما لا يحيطون به ، وقد جاء هذا الحوار الربانى الرفيع فى سورة البقرة بعد ذلك ، وعندما تيقنوا من قصر علمهم استغفروا وسجدوا طائعين لله ولأمره ، وقد تفردت سورة البقرة بحوار الملائكة الأطهار مع ربهم فى أمر خلق آدم .

قال تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ماعلمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[٢] .

وسورة البقرة مدنية النزول وهذا يعنى أنها نزلت بعد سورة طه بزمن غير قصير ، وقد وضحت آيات سورة البقرة ماورد مجملا عن آدم عليه السلام فى سورة طه وغيرها من السور .

ومجمل القول فى علم الملائكة أنه :

١ – علم ربانى ألقى الله إليهم به ، ولم يجدوا فى اكتسابه ، ولم تورثه لهم بيئة ، وهم طُهار ويقرون بذلك ، ولا يدعون لأنفسهم دورًا فى اكتسابه ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ .

فمصدر علم الملائكة هو فيضه سبحانه عليهم .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٤ .

(٢) سورة البقرة آيات ٣٠ – ٣٤ .

٢ – وعلم الملائكة ليس علمًا مطلقا بل هو علم محدود ، والملائكة أنفسهم لا يعرفون حدوده ومقداره ، وقد ظهر ذلك جليًا عندما تعجبوا من جعل الله خليفة على الأرض ، وقد ظهر ذلك القصور فى علمهم عندما توقعوا لذلك الخليفة الفساد فى الأرض وسفك الدماء ، وقد حصروا التسبيح لله وتقديسه فيهم فقط ، ولم يعلموا أو يتوقعوا أن يكون ذلك الخليفة مثلهم مسبحا أو مقدسًا لله ، فأقاموا حكمهم على الخليفة بالظن والتوقع ، ولم يقيموه على تجربة يقينية سابقة ، فلم تكن الأرض قد عمرت بخليفة آخر سبق آدم فى الخلق .

وقد أكد سبحانه خطأ ذلك التوقع بتأكيده على قصور علمهم فى قوله تعالى : ﴿إنى أعلم مالا تعلمون﴾

وقد تأكد ذلك العجز مرة أخرى بالدليل العلمى عندما عقدت المباراة بين آدم والملائكة ، فقد علم الله مخلوقه آدم علما أحاط بأسماء المخلوقات ، ولم تكن الملائكة قد أحاطت بشىء منه ، وقد أقرت الملائكة بذلك العجز عندما طلب الله منهم الإخبار به إن كانوا قادرين أو صادقين فى ادعائهم ، أبدى آدم قدرة علمية فاقت علم الملائكة ، وجاء الاستفهام التقريرى التأديبى من الله لمخلوقاته من الملائكة فى قوله سبحانه ﴿قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض﴾

٣ – لقد أقامت الملائكة حكمها على آدم على أساس المفاضلة بين عنصرى خلق آدم والملائكة ، فآدم مخلوق من طين والملائكة مخلوقة من النور ، ورأت الملائكة أن النور أسمى من الطين . والملائكة بناء على هذا أفضل من آدم .

وهذه المفاضلة فى ظاهرها أعم وأشمل ، وهى أن كلا العنصرين مخلوق ، وهما متساويان فى أنهما من خلق الله ، وكلاهما يدين بالعبودية لله سبحانه وتعالى ، فلا فضل لأحد على الآخر إلا بالطاعة له سبحانه ، وقد تأكدت هذه الحقيقة فى امتثال الملائكة لأوامر الله سبحانه فسجدوا لآدم .

والمفاضلة بين المخلوقات على أساس عنصرى الخلق خاطئة ، ولا تؤدى إلى نتائج علمية صحيحة ، والاختلاف فى أصل الخلق لا يعنى التفضيل ، والله وحده خالق آدم والملائكة والعناصر التى صيغا منها ، والله سبحانه جعل المنافع موزعة على خلقه وعناصر تلك المخلوقات ، فنفع الطين والتراب لا يلغى نفع الذهب فى ميدان آخر ، ونفاسة الذهب لا تنزع منافع الإنبات والغرس والزرع التى تميز بها الطين .

٤ – الملائكة عباد الله الأطهار ، أطاعوا الله وعرفوا قدرهم ، وسجدوا لله وامتثلوا لأمره فسجدوا لآدم فزاد علمهم بالفتح الربانى ، والدرس التربوى الإلهى موضوعه خلق آدم وإطاره الحوار الذى دار معبرًا عن تعجبهم وقصور علمهم وخضوعهم لله سبحانه .

الفكرة السادسة : النسيان

يلحظ فى السورة الكريمة التنديد والوعيد المتعلقين بظاهرة النسيان ، وهى فكرة ترددت عدة مرات ، وقد أشارت السورة إلى التوابع الجسيمة التى لحقت أو ستلحق بالناسين .

وقد رأينا كيف كان العلم وما يزال فضيلة تزين صاحبها ، وتلبسه حلل الحب والأبهة والمهابة ، وقد اشتق من العلم اسم من أسماء الله الحسنى (العليم) ، ويقترب من دلالة (العليم) الحكيم الخبير .

وفى مقابل ذلك نرى أن النسيان رذيلة توصم بالقبح ، وتقلل من قدر صاحبها ، وتجعله باعثًا على التندر والسخرية والاحتقار .

وذلك عندما يكون النسيان لفضيلة أو عقيدة أو أمر من أوامر الله ، أو قانون عام لا تختلف فيه جموع الناس فى مجتمع من المجتمعات ، أو كان النسيان لحق معلوم من حقوق الدين أو الوطن أو البشرية .

أما إذا كان النسيان نتيجة لمرض نفسى أو عضوى فإن الناس يقفون من صاحبه موقف الإشفاق والتراحم ، لكن ذلك الإشفاق لا يصلح أن يكون سندا أو ركيزة للثقة به ، لأن النسيان يعنى إضاعة الحقوق حتى لو كان من ينسى مريضا . ولرجال الحديث قواعد محكمة لتلقى الخبر يخرجون منها أصحاب النسيان .

والنسيان رذيلة يتنزه الله سبحانه عنها ولا يوصف بها ولا تترادف معها صفة أو لفظة أخرى تتصل بالذات العلية .

وقد يرى بعض الناس أن فى النسيان نفعا يريح صاحبه إذا ما كان التفكير فى الشر هو المسيطر على سلوك صاحبه ، فيكون النسيان فى نظرهم نعمة جليلة ، لا تدفع صاحبها إلى التفكير فى الانتقام ورد الإهانة ودفع الصاع صاعين ، وهذا فى نظرنا لون من التسكين للداء ، ومغالطة لخداع النفس ، فالإنسان إذا نسى الإهانة زمنا فإنما يكون ذلك لضعفه وعدم القدرة على ردها ، وعندما تلوح له الفرصة لا يتردد فى الانتقام .

وإنما الإصلاح الحقيقى يكمن فى الإيمان الصحيح الذى يدعو صاحبه إلى التماسك ثم العفو والتسامح ، وإلى التسليم بأن إرادة الله هى النافذة ، وأن الله سبحانه هو المجازى وحده على أفعال البشر ، فيكون الإيمان هو الدافع الحقيقى فى محو ما قد يسببه الضعف الإنسانى . فالذى لا تمحوه السماحة لا يقدر النسيان على طمس خطوطه ومعالمه .

وأصحاب النسيان من المرضى يزول عنهم التكليف ، لكن الخطيئة تقع على غير المرضى ، وبخاصة إذا ما تعلق النسيان بأمر الله أو نهى منه على لسان أنبيائه .

وهذا ما نراه بوضوح فى السورة الكريمة ، وأبرز صورة للنسيان ما نراه فى قصة آدم عليه السلام ، فلقد خلقه الله سبحانه وعلمه وكرمه . وأمر الملائكة بالسجود له ، وأسكنه هو وزوجه الجنة ، كما حذره سبحانه من إبليس ووضح له أنه عدو له ، ونهاه سبحانه عن الاقتراب من شجرة مخصوصة بالجنة ، لقد عصى آدم ربه بنسيان أوامره وعدم تذكر نواهيه ، فنتج عن ذلك اتباع وسوسة إبليس ، فكان النسيان خطيئة تسببت فى إخراجه من الجنة ، قال تعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وإنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى﴾[1] .

فقد ترتب على نسيان آدم عصيانه لأمر ربه ووقوعه فى الغواية ، وقد يكون ذلك كله راجعًا إلى عدم وجود رأى معزوم عليه لدى آدم ، وذلك كما يفسر السجستانى قوله تعالى : ﴿ولم نجد له عزمًا﴾[2] .

وإذا كان سلوك آدم يمثل أوضح صورة للنسيان فإن سلوك بنى إسرائيل يمثل أوسع أو أكبر صورة له ، وتاريخهم الطويل حافل بالنسيان منذ موقف أخوة يوسف منه حتى بعثة المسيح ، ولهذه الغفلة التى لا تنقطع كثرت الأنبياء والرسل إليهم لتذكرهم وتصلح من أمرهم ، لكن تاريخهم يؤكد أنهم أصحاب غفلة ونسيان ، وقد ظهر نسيانهم فى السورة فى عدة مواقف منها :

---

(١) سورة طه الآيات من ١١٥ - ١٢١ .

(٢) انظر تفسير غريب القرآن لأبى بكر السجستانى ص ١٠٥ ط . دار التراث .

١ – نسيانهم تنكيل فرعون بهم ؛ فقد قتل أطفالهم ، واستحيا نساءهم ، وسخر رجالهم ، وفرق شملهم ، فلم يكن لهم شأن مذكور فى مصر ، وقد جاء موسى برسالته وأعانه ربه على إبعادهم عن قبضة فرعون ، فخرج بهم ، ومنَّ الله عليهم بنعمه الجزيلة التى كان من أهمها جمع شملهم بعد النجاة .

لقد نسى بنو إسرائيل أيام تعذيبهم بمصر ، ونسوا أيضًا نعم الله عليهم ، فلم ينتفعوا بهذه التجارب ، ولم تكن تلك المواقف دروسًا مستفادة ، فلم يلتفوا حول نبيهم ولم يتمسكوا بعقيدتهم ، ولم يتذكروا نعم الله الجزيلة الوافرة عليهم ، وقد سوَّى النسيان عندهم بين النعم والنقم .

٢ – ومن مواقف النسيان المثيرة ما صنعوه فى غياب موسى ، لقد غاب موسى عن بنى إسرائيل مرتين : المرة الأولى لم يكن له آنذاك شأن مذكور وذلك عندما فرَّ هاربًا بعد قتله المصرى ، وقد غاب عنهم سنين طويلة ، ولم يفكر واحد منهم فى ذلك الفتى الشجاع الغيور الذى عرض نفسه للهلاك من أجل رجل منهم ، وقد ضحى موسى بذلك القصر الملكى والرفاهية ، وقد عمل ذلك الفتى المنعم أجيرًا وراعى غنم فى أرض تبخل على سكانها بالماء المغدق الوفير ، فلا وجه للموازنة بين حياة موسى فى قصر فرعون وحياته فى أرض مدين ، ومع ذلك لم يفكر بنو إسرائيل فى ابنهم الغائب ولم يصنعوا شيئًا من أجله ، لقد نسيه بنو إسرائيل .

وبطبيعة الحال فإن ترك موسى لقصر فرعون هو الخير الذى أراده الله له ، فكانت السنوت التى قضاها فى أرض مدين لإعداده للنبوة وتلقى الرسالة .

ومن المؤكد لدينا عدم وجود آية واحدة أو جملة أو إشارة فى القرآن والتوراة تشير إلى اهتمام بنى إسرائيل بأمر الفتى الهارب الذى ضحى بكل شىء من أجلهم .

٣ – أما المرة الثانية التى ترك موسى فيها قومه فقد كانت يوم ذهب للميقات لتلقى كلام ربه أو أسفار التوراة ليعملوا بها ، فقد ذهب إلى الطور ومعه سبعون رجلاً من بنى إسرائيل هم النقباء ، وقد استخلف أخاه هارون على قومه خلال تلك المدة التى قيل إنها أربعون ليلة ، وقيل هى شهر ذى القعدة وعشرة أيام من ذى الحجة ، وقيل أقل من ذلك[1] . وقد ورد فى سورة الأعراف أنه أربعون ليلة صراحة ، قال تعالى :

(١) انظر الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٤٨ – ص ٥٤٩ ط . دار المعرفة – بيروت – لبنان .

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾[١] . وأربعون يومًا وهى الحد الأقصى لغيابه عنهم – لا تسمح بتحول عقيدة شعب إلا إذا كانوا مؤهلين لذلك التحول ، وقد أهلهم لذلك نسيانهم وغفلتهم وضعف عقيدتهم ، وقد استجابوا للسامرى ونسوا ما وعدهم الله به من النصر والظفر أو من سماع كلام الله على لسان موسى ، أو من تعاليم التوراة التى سيفوزون بالعمل بها وذلك كما يقول المفسرون[٢] .

لقد أخبر الله كليمه موسى وهو على الطور بحدوث فتنة السامرى وتضليله لبنى إسرائيل فعاد إلى قومه غضبان أسفًا حزينًا على ما آل إليه قومه وأخذ يؤنبهم على نسيانهم وعد الله لهم ، ولأنهم أخلفوا موعده معهم ، فلقد قيل أنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله حتى يرجع إليهم من الطور[٣] .

قال تعالى : ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك ربِّ لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى﴾[٤] .

إن النسيان يؤرق موسى ويخيفه ويحوله إلى شخصية يملكها الغضب ، فهو يعلم ما صنعه بجده آدم ، ويبدو أن ما حدث لآدم صور ماثلة وعالقه بذهنه ، ولقد رأينا خوفه الشديد من الحية التى خلقها الله من العصا لأنه تذكر ما صنعته بآدم من قبل ، وها يخاف من النسيان خوفا شديدا للسبب نفسه .

وينفى موسى عن ربه صفة النسيان لما فيها من رذيلة وقبح ، وذلك فى محاورة فرعون له وسؤاله عن أخبار الأمم البائدة ، فقد أجابه موسى بأن علمها عند الله الذى لا يتصف بصفات البشر المرذولة كالضلال والنسيان ، قال تعالى : ﴿قال فمن ربكما يـ موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ..﴾[٥] .

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٢ .
(٢) انظر الجامع جـ ٦ ص ٤٢٧٤ .
(٣) انظر الجامع جـ ٦ ص ٤٢٧٣ .
(٤) سورة طه : آيات ٨٣ – ٨٦ .
(٥) سورة طه : آيات ٤٩ – ٥٢ .

ولم يكن نسيان آدم وبنى إسرائيل هما فقط الباعث على غضب موسى وخوفه ، فلقد امتد الأمر إلى اتهام موسى نفسه بالنسيان والضلال ، فعندما صنع السامرى تمثال العجل قال لبنى إسرائيل هذا إلهكم ، وهو إله موسى أيضًا ، قد تركه هنا وذهب يبحث عنه فى الطور ، وهذا الكذب قد أثار موسى وأغضبه ، قال تعالى : ﴿فأخرج لهم عجلاً جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى﴾[1] .

إن أمر السامرى لم يقف عند إضلاله لبنى إسرائيل بل تعداه إلى إنكار الإله الذى بعث موسى بالحق ، وإلى تسفيه موسى نفسه واتهامه بالغفلة والضلال .

ويضيف الزمخشرى رأيًا آخر فى نسبة النسيان إلى غير موسى ، وقد نسبه إلى السامرى ، ويكون تفسير قوله تعالى على الرأى الثانى ، أى فنسى السامرى الإيمان[2] .

ونحن نستبعد هذا الرأى لأن السامرى لم يكن ذا إيمان حقيقى حتى ينساه ، بل صدّق تصديقًا ظاهريًا بموسى ، وسلوكه يرجح ذلك ، والزمخشرى قد تفرد بإيراد هذا الرأى فيما نعلم .

لقد نسى آدم وتحمل جزاء نسيانه ، ونسى بنو إسرائيل فحدث لهم ما حدث ، وما زال الناس حتى أيامنا ينسون مما يؤكد أنها ظاهرة غريزية فى الإنسان قد ورّثها آدم لأبنائه وأحفاده مما قد يترتب عليه العقاب .

وقد علم سبحانه ما ستطبع البشرية عليه من النسيان الذى سيصف به ولد آدم ، فحذر سبحانه منه ووعد الذين يتبعون أوامره بالنعيم والسعادة ، لكن الذين يغمضون أعينهم عن آيات ربهم ولا يكترثون برسله وكتبه لهم عذاب فى الآخرة ، وعذاب فى القبر ، وحرمان من الرزق الوفير فى الدنيا ، وسيبعثون يوم القيامة صمًا بكمًا عميًا ، لأنهم نسوا آيات الله فى الدنيا ولم يعملوا بها ، فجزاؤهم أن يهملوا وينسوا فى الآخرة .

لقد علم الله نسيان البشر قبل خلقهم على الأرض ، ونهى سبحانه عن تلك الرذيلة ، وقد تحقق علمه سبحانه ، وهو جل ثناؤه يخبر عما سيكون فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم

---

(١) سورة طه : آية ٨٨ .

(٢) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٠ .

القيامة أعمى . قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى﴾ [١] .

ولقد تحقق علم الله ، وتأكد بالأدلة العلمية المتواترة كل يوم وليلة ، أن النسيان آفة مغروزة فى البشر ، والناس يتفاوتون فى قدرتهم على التخلص منها ، ولقد خلق الله البشرية على تلك الشاكلة لحكمة هو أعلم بها .

وإذا كان النسيان يمثل فى السورة هذا الجانب الهام فلا عجب أن يتردد الذكر بلفظه بقدر ما تردد النسيان ، وهو تقابل عجيب ، فلقد جاء الذكر فى مواضع وسياقات مختلفة عن مواضع النسيان ، لقد ورد النسيان فى آيات : ٥١ ، ٥٢ ، ٨٦ – ٨٨ – ١١٥ – ١٢٦ – ، وقد جاء الذكر فى آيات ٣ – ١٤ – ٣٤ – ٤١ – ٤٤ – ٩٢٩ – ١١٢ .

ويلحظ على هذا التقابل وجود التوازن الفريد فى نسق المضمون بين الحكاية للاعتبار والطلب الإنشائى فى مقام يسمح به ، وسيأتى إن شاء الله تفصيل جانب من ذلك .

هذا هو المحتوى الذى تضمنته السورة فيما ظهر لنا ، وهى بلا شك حافلة كغيرها بالموضوعات الهامة والأفكار العميقة ، لكننا قد توقفنا عند أهم ما بدا لنا فيها ، وفى الحقيقة ، إن أى سورة لا تحيط بها دراسة واحدة ، ولا رؤية فى زمن دون آخر ، بل تظل كشأن القرآن كله – كنزًا لا ينتهى ومعنًا لا ينضب .

لذلك نكتفى بما أوردناه من موضوعات وأفكار لننتقل إلى جانب آخر من جوانب دراسة السورة .

* * *

(١) سورة طه : آيات ١٢٣ – ١٢٦ .